طرق الحج في إفريقيا
الجالية الإفريقية في بيت المقدس

محمد ذياب أبوصالح

تقديم:

القدس الشامخة حاضرة التاريخ، ومهوى الأفئدة ومحط الرحال، ونقطة الالتقاء للعديد من الأجناس البشرية، تهفو إليها القلوب، وتتوجه صوبها الأرواح، لتعيش في كنفها، وتتنسم من هوائها، وتتلذذ بعبيرها بنفحات الإيمان بما منحه الله سبحانه وتعالى لها من قداسة وطهارة وبركة، فهي من أقدم مدائن الدنيا وأقدسها وأكثرها استيعابا للأعراق البشرية، إذ إنها مقدسة في عقائد التوحيد، فيقدسها المسلمون كونها تحوي المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، وللمسلمين فيها تاريخ عميق وإرث عريق، كما يقدسها أبناء الديانات السماوية الأخرى كالنصارى كونها تحوي كنيسة القيامة، وهي في نظر أبناء الملة الثالثة مقدسة، كما يعتقدون.فكانت وما تزال وستبقى نقطة الصراع العالمي غزاها العديد من الأمم ودمرت وحرقت، ولكنها بقيت القدس العربية الإسلامية الفلسطينية.

تعرضت القدس في العصور الوسطى للغزو الصليبي القادم من أوروبا، وللاجتياح المغولي القادم من أواسط آسيا. وقد حررت على أيدي المسلمين، بيد أنه لم يتم غزوها من الجانب الإفريقي، بل كان توجههم إليها للعيش والتعبد فيها، ولم يقتصر الوجود الإفريقي على المسلمين وحدهم، بل إن أبناء الديانة النصرانية لهم حضور فيها، وحيث أن هذا البحث يقتصر على أبناء الجالية الإفريقية بشقيها المغاربي، القادم من شمال إفريقيا، والمغاربي الإفريقي المسلم، القادم من القارة السوداء، والذي قدم للعيش والتبرك في هذه المدينة. فقد قمت شخصيا بزيارة خاصة إلى هذه الجاليات، وحصلت على المعلومات من أبنائها لتكون ثمرة لهذا البحث الذي أقدمه لإخوتنا في السودان الشقيق، ليبقى حبل التواصل موجودا بين بيت المقدس والإخوة الأفارقة، الذين وفدوا إلى هذه المدينة المقدسة، وما يزال تواجدهم جنبا إلى جنب مع أبناء هذه المدينة، يمثل عنصرا مهماً في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فهم جزء أصيل من بيت المقدس، لهم وجودهم وكيانهم وانتماؤهم ودورهم المعيشي والنضالي ضمن الشعب الفلسطيني، وقدموا التضحيات الكبيرة والكثيرة، وأثبتوا للعالم بأنهم من أشد الناس حرصا وتفانيا على القدس، وقد قسمت هذا البحث إلى فصول ومباحث ومطالب.

علما بأنني قد توجهت شخصيا لهاتين الجاليتين في القدس، واجتمعت بأشخاص منهما، وتعرفت عليهم، واستقيت المعلومات منهم، وحصلت على صور لمساكنهم ومواقعهم داخل أسوار المدينة المقدسة. ومن هؤلاء السيد عيسى عبد الله أحمد المغربي (المير) أبو مهدي والذي يرجع بأصوله إلى مدينة أغادير المغربية، والذي حضر جده لتقديس الحج، واستقر في القدس عام ١٩٠٧م. كما اجتمعت بالسيد ياسر قوس من الجالية التشادية والسودانية والسنغالية وجالية الكنغو، فحصلت على هذه

المعلومات من أصحابها، وقدمتها في هذا البحث الشائق لعله يجد القبول لديكم، وليبقى التواصل مستمرا بين أبناء الشعب الفلسطيني العربي المسلم، وإخوانهم من القارة الإفريقية.

آملا أن أكون قد وفيت بالغرض المنشود من إبراز وجود هذا العنصر الفاعل والمتجذِّر منذ مئات السنين في هذا البلد المقدس.

والله أسأل أن يوفق أمتنا، ويجمع شملها، ويوحد كلمتها، ويحرر مقدساتها، وما ذلك على الله بعزيز.

الأفارقة المغاربة في فلسطين

كانت فلسطين بعامة، ومدينة القدس بخاصة، مقصدًا للمغاربة عبر التاريخ؛ فالحجاج المغاربة الذين كانوا يزورون مكة المكرمة والمدينة المنورة، سرعان ما يعرِّجون على المدينة المقدسة، فتستهويهم الإقامة فيها؛ ومن جهة أخرى اجتذبت مدينة القدس أهل العلم المغاربة (محدثون، علماء، رحالة...)؛ فضلًا عن اختيار المجاهدين المغاربة، الذين شاركوا في صد الحروب الصليبية، والإقامة بالمدينة، وباقي المناطق الفلسطينية.وقد دأب المغاربة على زيارة بيت المقدس منذ ما قبل الاحتلال الفرنجي لمدينة القدس سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، وتزايدت أعداد المغاربة بعد استرجاع القدس من الفرنجة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وقد ساهم المغاربة في الجهاد الإسلامي ضد الفرنجة؛ وكان لهم دورٌ بارزٌ في فتح بيت المقدس، وكسر شوكة الفرنجة في فلسطين؛ ولذلك طلب الناصر صلاح الدين الأيوبي من سلطان المغرب (يعقوب المنصور) مد يد العون، وتزويده بأساطيل بحرية، تُنازل أساطيل الفرنجة؛ فجهّز سلطان المغرب أسطولًا كبيراً لمساندة الجيش الإسلامي في المشرق العربي.وقد أسكن الناصر صلاح الدين الأيوبي أعداداً من المغاربة في بيت المقدس بعد انتصار المسلمين في معركتي "حطين"، و"فتح بيت المقدس"، على الفرنجة. وقال الناصر صلاح الدين: " أسكنت هناك من يثبتون في البر، ويبطشون في البحر، وخير من يؤتمنون على المسجد الأقصى، وعلى هذه المدينة"؛ ثم أوقف الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي (النجل الأكبر للناصر صلاح الدين الأيوبي) حارة المغاربة على مصالح طائفة المغاربة، المقيمين في القدس إبّان سلطنته على دمشق (٥٨٩هـ/١١٩٣م – ٥٩٢هـ/١١٩٥م)، حين كانت القدس تابعةً له؛ بُغيةَ تشجيع أهل المغرب العربي على القدوم إلى القدس، والإقامة فيها، ومساعدة سكانّها المغاربة، الذين فضّلوا الاستقرار ومجاورة المسجد الأقصى المبارك. وعرف منذ ذلك الحين باسم "حارة المغاربة".

شغلت حارة المغاربة، مساحة تقدر بخمسة وأربعين دونما؛ وهي بذلك تشكل ما نسبته ٥% من مساحة القدس القديمة. وقد تباينت مساحة الحارة، تبعاً لاختلاف حدودها بين الحين والآخر؛ فقد امتدت مساحات من حارة المغاربة قبل العهد العثماني إلى خارج السور؛ فعرفت بحارة المغاربة البرانية".وفي السنوات العشر الأولى للانتداب البريطاني، قامت الصهيونية بمحاولات عدة للاستيلاء على الحائط، وعلى منطقة حارة المغاربة. وبعد نكبة عام ١٩٤٨م، اضطرت غالبية مغاربة فلسطين للجوء إلى سوريا ولبنان، وبقي منهم عدد قليل باتوا ككل أبناء شعبهم، لاجئين في ديار المعمورة. حيث أقاموا في مخيمات لبنان: في تل الزعتر، وصبرا وشاتيلا، وبرج البراجنة؛ بينما أقامت غالبية من لجأ منهم إلى سوريا في مخيم اليرموك.

السلطات الإسرائيلية تدمر حارة المغاربة عام ١٩٦٧م:

دمرت سلطات الاحتلال الإسرائيلي حارة المغاربة في مدينة القدس بكاملها عام ١٩٦٧م،وسَوَّتها بالأرض، وحولتها إلى ساحة أسمتها "ساحة المبكى" لخدمة الحجاج والمصلين اليهود عند حائط البراق؛ وذلك على حساب الحق التاريخي الفلسطيني الثابت في هذه المنطقة؛ لتشرد سكانها الفلسطينيين من أصول مغربية؛ وشردت ١٣٥ عائلة مسلمة عدد أفرادها ٦٥٠؛ كما نسفت ٣٤ داراً أخرى مجاورة، ومصنعاً للبلاستيك، وشردت نحو ٣٠٠ آخرين من سكانها وعمالها. وكان في حارة المغاربة، قبل أن تهدم أربعة جوامع، والمدرسة الأفضلية، وأوقاف أخرى.

ما يزال عدد كبير من أحفاد الفلسطينيين المغاربة يقيمون في القدس الشرقية ومناطق فلسطينية أخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ ومنهم عائلات: "العلمي"؟ و"المصلوحي"؟ و"الريفي"، و"حبوش"... إلخ. ورغم عدم توفر إحصاءات دقيقة لعددهم في فلسطين؛ إلا أنهم لا يقلون، بحسب شهادات متطابقة لعدد منهم يقيمون في قطاع غزة والقدس، عن ٢٠ ألف شخص.

وقد لعب الفلسطينيون من أصول مغربية، دوراً متصاعداً في مسار العمل الوطني الفلسطيني قبل النكبة، وبعدها؛ وتميزوا بعنادهم الوطني والكفاحي، وإخلاصهم المنقطع النظير لقضية شعبهم الفلسطيني؛ فارتقى منهم الشهداء؛ وسقط منهم الجرحى؛ وتعرض العديد منهم للأسر خلال مشاركتهم في مختلف الثورات والانتفاضات الفلسطينية. وقد كان المغاربة على الدوام موضع احترام أهل القدس وتقديرهم؛ لما عرفوا به من شجاعة وعلم وأدب.

حدود حارة المغاربة:

تنخفض حارة المغاربة عن مستوى أرض ساحات المسجد الأقصى المبارك. ويحدها من الجنوب سور القدس وباب المغاربة؛ ومن الشرق الزاوية الفخرية، ويليها المسجد الأقصى؛ ومن الشمال المدرسة التنكزية وقنطرة أم البنات؛ ومن الغرب حارة الشرف.وكان يمكن الوصول إليها عبر زقاق يفصل بين زاوية المغاربة، وتربة الأمير بركة خان المعروفة كذلك بالمكتبة الخالدية. ويفيد كتاب وقف الملك الأفضل لحارة المغاربة، أنّ حدّها الجنوبي هو سور القدس؛ ويليه الطريق السالك إلى عين سلوان، وحدّها الشرقي هو حائط الحرم القدسي الشريف المعروف بحائط البراق؛ ومن الشمال القنطرة المعروفة بـ"قنطرة أم البنات"؛ ومن الغرب دار الإمام ابن شمس الدين قاضي القدس، ودار الأمير عماد الدين بن موسكي، ودار الأمير حسام الدين قايماز.[١]

<u>تاريخ الحارة</u>:

ترجع الأهمية التاريخية للموضع الذي أُقيمت عليه حارة المغاربة إلى العصر الأموي، حين أنشأ الأمويون عدداً من القصور الملاصقة لسور المسجد الأقصى من الناحيتين الجنوبية والجنوبية الغربية؛ ويرجع تاريخ تأسيس حارة المغاربة إلى العصر الأيوبي. وقد عُرفت حارة المغاربة باسمها، بعد أن أوقفها الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وحافظت على عروبتها وإسلاميتها، منذ أن تأسست بعيد الفتح الصلاحي لمدينة القدس؛ وسكن المغاربة في حارتهم،

---

[١] - مركز المعلومات الوطني الفلسطيني (وفا)

ولم يغادروها حتى داهمت جرافات الاحتلال الإسرائيلي بيوتهم، لتدمرها بتاريخ ١١-١٢-١٣ حزيران سنة ١٩٦٧م؛[٢] وكان مما ميّز موقع الحارة، وجود الزاوية الخُتنية القريبة منها، تلك الزاوية التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الشيخ جلال الدين محمد بن أحمد ابن محمد الشاشي (نسبةً إلى شاش التي عُرفت لاحقاً بطشقند) في ١٨ ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م.[٣]

لقد احتضنت الحارة عدداً من المؤسسات الدينية والوقفية، التي لعبت دوراً بارزاً في الحركة العلمية والفكرية والدينية في القدس إبانّ العصر الأيوبي، ثم العصرين المملوكي والعثماني. وقد ذكرها مجير الدين: "حارة المغاربة، وهي بجوار المسجد من جهة الغرب، ونسبتها إلى المغاربة لكونها موقوفة عليهم ولأنهم يسكنون بها".[٤]

وتميزت الحارة بجملة من الأوقاف الكبيرة، التي ضمنت استمرار تدفّق المعونات والأموال والصدقات على مستحقيها من الأصول المغربية، المقيمين فيها والواردين إلى القدس المقيمين في زوايا الصوفية فيها، كزاوية أبي مدين الغوث الحفيد، وزاوية المصمودي. وقد ازدهرت أوقافها في العصر المملوكي، حين ظهرت أوقاف أبي مدين والمصمودي وسلطان المغرب علي المريني؛ وراح سكانّها ينخرطون في الحياة الدينية في القدس، لا سيما إمامة السادة المالكية في القدس؛ وقد ظهر منهم علماء وفقهاء وشيوخ دين كان لهم دورٌ بارزٌ في تاريخ القدس، الذي أخذت ملامحه تتكشف على نحوٍ تفصيليٍ بعد ازدياد الاهتمام بالكشف عن وثائق سجلات المحكمة الشرعية في القدس ووثائق الأرشيف العثماني في استنبول.[٥]

أوقاف المغاربة في القدس الشريف

في سنة ١٣٤٢هـ قام العالمان الفاضلان الشيخ محمد أفندي المهدي بن المهدي المغربي الجواني الجبلي، والشيخ محمد أفندي بن محمد بن حميد التونسي الدقاشي بعد موافقة فضيلة الحاكم الشرعي بالقدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى فيها- بتجميع جميع وقفيات المغاربة من سنة ٧٢٠هـ حتى سنة ١٢٥٩هـ ونسخها وإيداعها في المحكمة الشرعية بالقدس[٦] وهذه الأوقاف:

١- **متوضأ حارة المغاربة : ٧٣٠هـ/١٥٢٨م:** يعد هذا المتوضأ من الآثار التي أُنشئت قبل العصر العثماني بزمنٍ طويل (كما تؤكد وثيقة مؤرخة سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٨م) .

٢- **المدرسة الأفضلية ٥٨٩هـ/١١٩٢م:** أوقفها الملك الأفضل سنة ٥٨٩هـ/١١٩٢م، وأطلق عليها كذلك اسم "مدرسة القبة"؛ ضمّت رفات أحد الأولياء الصالحين (الشيخ عيد).

٣- **باب حارة المغاربة حوالي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م:**ذكره المقدسي البشاري بباب سلوان بين سنتي ٣٧٥هـ/٩٨٥م – ٣٨٠هـ/٩٩٠م؛ وهو بذلك يعود بتاريخه إلى ما قبل العصر الفاطمي في القدس. ثم كرّر ياقوت الحموي في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ما ذكره المقدسي،

---

[٢] - محمد رشيدعناب، الاستيطان الصهيوني في القدس، ط١ القدس، بيت المقدس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١ص ٦٧

[٣] - مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢، عمان، مكتبة المحتسب للنشر والتوزيع، ١٩٧٢م ص ٣٤

[٤] - أشرف الفاضلي، مقاله،بتاريخ ١٢/٨/

[٥] - د، سامي محمد الصلاحات، الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات،ط١، ٢٠١١م ص ٨٦.

[٦] -د أحمد العلمي، وقفيات المغاربة، دائرة الأوقاف العامة، القدس، ١٩٨١م ص ١

٤- **مقام ومسجد الشيخ عيد قبل سنة ١١٠١هـ/١٦٨٩م:** ؛ ويُنسب إلى "الشيخ عيد"؛ ذكره الرحالّة الشيخ عبد الغني النابلسي حين زار القدس سنة ١١٠١هـ

٥- **دار مجير الدين عبد الرحمن العليمي:** كانت موجودة سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م؛ وهي موضع دار مؤرخ القدس والخليل القاضي مجير الدين عبد الرحمن العليمي،

٦- **باب حارة المغاربة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م:**المدخل الجنوبي القدس؛ يقع على امتداد الجدار الواصل إلى قبة المسجد الأقصى؛ أمر بفتحه السلطان سليمان خان القانوني في سنة ٩٤٧هـ.

٧- **باب المغاربة من داخل السور**:يعد من الأبواب الصغيرة التي فتحها العثمانيون في القدس.

٨- **باب المغاربة من خارج السور:** يعلو الباب على ارتفاع خمسة أمتار، طاقة حجرية مربعة محمية بقضبانٍ حديدية، تعلوها سقاّطة لإسقاط الزيت المقلي على المهاجمين.

٩- **باب المغاربة في المسجد الأقصى:**يقع في الجانب الجنوبي للرواق الغربي للمسجد الأقصى ؛ ويصل هذا الباب بين حارة المغاربة والمسجد الأقصى

١٠- **دار القبو الروماني دار وقف فاطمة بنت محمد ٧٤٧هـ/١٣٤٦م:** أوقفت هذه الدار سيدة تدعى "فاطمة بنت محمد بن علي" المغربية المعروفة بـ"أم سعود" في ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. وقد عرفت هذه الدار، قبل وقفها، بالقبو الروماني؛

١١- **وقف الحاجة صافية بنت عبد الله الجزائرية ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م.**

١٢- دار وقف الحاج قاسم الشيباني المراكشي ١١٣٧هـ/١٧٢٤م.

١٣- دار وقف الحاجة مريم بنت عبد القادر المغربية ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م.

١٤- حاكورة الزيتون قبل سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م: تقع إلى الشرق من أرض الخاتونية.

١٥- حاكورة الجورة قبل سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م.

١٦- دار الرمانة قبل سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م: كانت دار الرمّانة تقع في خط الشيخ عيد.

١٧- طاحونة وقف المغاربة قبل سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م.

١٨- دار وقف كمال الحلواني قبل سنة ١١٧٣هـ/١٧٥٩م.

١٩- حاكورة وقف المغاربة كانت موجودة سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣م.

٢٠- دار الشيخ صنع الله الخالدي.

٢١- حاكورة اللوند قبل سنة ١١٩٤هـ/١٧٨٠م.

٢٢- حاكورة ابن غزال ١١٩٧هـ/١٧٨٢م.

٢٣- الحاكورة الغربية ١١٢٣هـ/١٧١١م.

٢٤- حاكورة وقف أبو مدين لِصق المدرسة التنكزية ٨٢٨هـ/١٤٢٤م .

٢٥- حاكورة وقف المغاربة. [٧]

---

[٧] - أحمد سعد الدين العلمي،وقفيات المغاربة، القدس،دائرة الأوقاف العامة، ١٩٨١م، ص٢٥٨

عائلات بيت المقدس وفي مدونة للدكتور خضر عباس عن العائلات المقدسية أقتبس منها ما يلي :

"القدس ليست كأي مكان في العالم، فكل بقعة من أرض بيت المقدس الطاهرة، تنطق بالتاريخ المعبق برائحة الرسل والأنبياء، والصحابة والصالحين، ورجال جبلوا بدمهم وعرقهم وجهدهم ملاط كل بلاط وأحجار القدس.. فالقدس التاريخ محفوظا فيها بين ذرات ترابها وأزقتها، ذلك التاريخ الذي لا يمكن تزويره أو بيعه أو العبث به، أو حتى إزالته.. فهو تاريخ منقوش في الصخر، كما هو مسطور في الدهر.

وقد شكل سكان القدس عصب وعصبية هذا التاريخ، فالعصبية كما ذكر ابن خلدون في مقدمته، عامل أساس في بناء المجد السياسي، وفي إقامة الدول.. ثم زوالها بعد ركون أصحابها إلى الخمول والكسل، وزوال عامل التعاضد والتناصر بين رجالاتها..ولهذا شكلت العصبية بين السكان الفلسطينيين مجال حماية على التراث والحضارة والتاريخ والمقدسات في القدس..حيث كما ميز الله سبحانه وتعالى بيت المقدس عن غيرها من عواصم العالم في النواحي التاريخية والدينية والسياسية، وميزها بتراثها وفنونها المعمارية ومبانيها الشامخة بمقدساتها الإسلامية وبتاريخها العريق.. ميز عائلتها وأسرها الشريفة والعريقة ..فكانت عائلات القدس من أشرف العائلات وأعرقها وأنبلها على الإطلاق..فمن عائلاتها من سكن بيت المقدس للمرابطة في الحرم القدسي الشريف للتقرب إلى الله تعالى، فتركوا لنا تاريخا مشرفا وآثارا تاريخية عريقة غنية عن التعريف، ومنهم من دخلوها فاتحين مع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام ١٥ هـ، ومنهم من دخلوها محررين مع الناصر صلاح الدين الايوبي رحمه الله عام ٥٨٣ هـ، ومنهم من هاجر إليها، وسكنها بعد الفتح والتحرير تبركا بها..وقد عمدت هذه الأسر العريقة في القدس، مجدها بالمحافظة عليه على أساس من الجهاد والعلم والمال، واقترنت بالزعامة القائمة على العمل الزاهر والكرم الباهر والأعمال الحميدة، وكانوا جميعا نعم الجار ونعم المجير.

وقد تسامحت المدينة، كما هي طبيعتها، فضمت بين أحضانها جميع الملل والنحل، من كل مله ودين، فكان فيها المسلم مع المسيحي مع اليهودي جنبا إلى جنب، دون تعصب أو تحيز أو عنصرية، رغم أن الأكثرية الساحقة دوما من سكان مدينة القدس، كانت تتألف من المسلمين العرب، حيث وفدوا إليها جهادا وحبا وتبركا بها من أقطار إسلامية وعربية مختلفة، كالمغرب ومصر وسوريا والعراق وغيرها من دول آسيا وإفريقيا.

ويبلغ عدد سكان مدينة (القدس الشرقية في الوقت الحاضر حوالي ٣٠٠ ألف نسمة، معظمهم من السكان العرب والمسلمين، وهناك عدة آلاف من العرب النصارى لا يتجاوز عددهم خمسة عشر ألفا، وتقدر مساحتها بأربعة آلاف ومائة دونم منها (871) دونما منطقة بناء سكني.. وذلك حسب ما جاء بنشرة (جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني).

وقد تمثلت الزعامة في القدس في الغالب في أسرة الحسيني، التي تتربع على رأس الأسر اليمنية. بينما تربعت أسرة الخالدي على رأس الأسر القيسية.. وقد تقلدت في الغالب عائلات الحسيني والخالدي أهم المناصب في القدس، واحتكروا الإفتاء ونقابة الأشراف ومشيخة الحرم ونيابة الشرع وباشكاتبية المحكمة

الشرعية.. رغم أن بعض العائلات قد نافستها على هذه المناصب مثل: آل جار الله أبو اللطف، والجماعي الخطيب، والعلمي، والدجاني، وأبو السعود.. حيث تقلد أبناؤها من حين لآخر وظائف مهمة مثل الإفتاء والنقابة ونيابة الشرع.

ووجدت أسر مقدسية أخرى عريقة الوجود في المدينة أقل شهرة، تقلدت وظائف علمية وإدارية بوظائف أقل مكانة ونفوذاً، وقد عايشت هذه العائلات فترات صعود وهبوط في مكانتها ونفوذها على مر الأجيال مثل: الإمام، والبديري، الفتياني، وجودة، ونسيبة، والعسيلي، والموقت، والإمام، والشهابي، والدقاق، والأنصاري.. وغيرها من الأسر المقدسية المعروفة، الذين فقدوا فرصهم في الحصول على وظائف مهمة– كانوا يتقلدوها في الأجيال السابقة، واكتفوا بأدوار ثانوية في المدينة.

وأما بعض عائلات القدس العريقة أيضا في تاريخها وحسبها ونسبها مثل: آل الجاعوني، والقطب، والعفيفي وقطينة، وسموم، وشهوان، والنشاشيبي، والحموري، ومعتوق، والنمري، ويوزباشي..

فقد خسرت وظائفها العلمية والإدارية العالية، واكتفى أبناؤها بوظائف متواضعة في الخدمة والتدريس في المساجد والمدارس والزوايا ونسخ الكتب والمؤسسات الخيرية، لكنهم تميزوا عن سابقيهم بأن بعضهم طرق أبواباً جديدة في سبيل الحراك الاجتماعي، إما عن طريق الخدمة العسكرية، وإما عن طريق التجارة.

العائلات المقدسية القديمة: هي التي دخلت القدس محررة في ركاب التحرير لصلاح الدين الأيوبي أو بعده، وتتابعت في دخولها، واستقرارها في بيت المقدس حتى عام ١١٠٠هـ. وهي:

الخالدي– البديري– الشهابي– العفيفي– الخطيب بني جماعة –الدجاني –الغوانمة– جار الله– الإمام– السروري – النقيب– المفتي– أبو السعود –الفتياني– العلمي– بو مدين– نسيبة– النشاشيبي– العسلي– الحسيني– الجاعوني –درويش– الأنصاري– جودة– النمري– قطينة– الداودي– العارف– رصاص – كمال–البخاري–الترجمان"الصالح" –غنيم– المؤقت– شتية– شرف– نور الدين –الشعباني–الأيوبي"[٨]

خارطة طرق الأفارقة المقدسيين:

من المعلوم أن هناك ثلاثة طرق للمواصلات عبر الزمن، وهي الطريق البري والبحري والجوي، وحيث أنه كان هناك طريقان للمواصلات، وهما البري والبحري فقد سلك الأفارقة هذين الطريقين، وأما الطريق الجوي فلم يكن ميسورا في العصور السابقة.

استطاع المغاربة الأفارقة المجيء إلى هذه الديار عن طريق تجمعهم في موانيء شمال إفريقيا وانطلاقهم في البحار بسفنهم الشراعية إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط فترسو بهم في موانئ الإسكندرية، ومن ثم يواصلون رحلتهم برا عن طريق شمال مصر إلى البحر الأحمر، فتقلهم المراكب إلى شواطئ الجزيرة العربية عن طريق ميناء الحديدة أو رابغ أو جدة، ثم ينتقلون برا إلى مكة المكرمة فيؤدون مناسكهم، ومن ثم يتحولون إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي محمد(ρ) والأماكن المقدسة، ولا أدل على ذلك من أن آبار علي التي يحرم منها المعتمر والحاج متوجها إلى مكة المكرمة، سميت بآبار علي نسبة على علي بن دينار، وهو سوداني الأصل، ثم يتوجهون إلى بيت المقدس ليكتمل حجهم المقدس بزيارة المساجد

[٨] - الدكتور خضر عباس، مدونة منشورة على صفحته الشخصية.

الثلاثة ومن هنا يمكن لمن أمكنه السفر وساعده الحظ العودة إلى بلاده أو من يرغب في الإقامة ببيت المقدس يستقر فيها حيث السكن والمئونة والعبادة، ويجاور فيها ويزور قبور جد الأنبياء في مدينة الخليل، ويطيب له المقام في أكناف بيت المقدس.

أما من يحضر من الشعوب الإسلامية من القارة السمراء، فيمكنه أن يأتي إلى موانئ الحبشة أو إثيوبيا، وينتقل إلى الجانب الشرقي من البحر الأحمر، ويسير على نفس خطى المغاربة الأفارقة، فيستقر في القدس، ومن ثم يتم تشكيل الجالية بجوار المسجد الأقصى المبارك.

الهجرات العربية إلى القارة الافريقية وآثارها الثقافية والحضارية:

ليس من اليسير على الباحث أن يحدّد تاريخاً مُعيّناً لبداية العلاقة بين الجزيرة العربية وبلاد السودان بوجه عام، وبلدان وادي النيل بشكل خاص، بيد أنّ هناك شبه إجماع بين المؤرخين والباحثين على أنّ هذه العلاقة مُوغلة في القِدَم، تعود إلى آماد بعيدة قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه حتمية تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية، ذلك أنّ البحر الأحمر لم يكن في وقت من الأوقات حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية العربية وشواطئه الإفريقية، إذ لا يزيد اتساع البحر على مائة وعشرين ميلاً عند السودان، ويبدو بهذا أنه ليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة [٩]، وفي الجنوب يضيق البحر الأحمر لدرجة كبيرة عند (بوغاز) باب المندب، حتى لا يزيد على عشرة أميال، وهو الطريق الذي سلكته السلالات والأجناس إلى القارة الإفريقية منذ آماد بعيدة [١٠].وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أنّ المصريين القدماء الذين عبدوا الإله حورس كانوا عرباً هاجروا من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر عن طريق مصوع[١١]، وتابعوا سيرهم عن طريق وادي الحمامات شمالاً إلى مصر، وأنّ معبد الشمس الذي بُني قرب ممفيس، إنما بنته جاليات عربية، وصلت إلى هناك في وقت غير معروف، ووُجدت آثار لجاليات عربية كبيرة، تسكن المنطقة المحاذية للنيل من أسوان شمالاً إلى مروى جنوباً[١٢]، وقد دلت الأبحاث الأثرية والتاريخية على أنّ هجرات عربية قدمت من جنوب الجزيرة واليمن عبر البحر الأحمر، يعود بعضها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وثبّتت بعض هذه الجاليات العربية أقدامها في بعض جزر البحر الأحمر (مثل: دهلك) منذ عدة قرون قبل الإسلام[١٣].ولم يقتصر وجود الجاليات العربية على الساحل الإفريقي، بل إنّ أفراد هذه الجاليات قد توغّلوا في الداخل، ووصل بعضهم إلى ضفاف النيل، وأقاموا شبكة من طرق القوافل التجارية بين ساحل البحر الأحمر والمناطق

---

[9] - ابن سيد الناس: السيرة النبوية، ج ١، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٥٢، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦م، ص (١٠٦، ١٠٧)

[١٠] –محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٢٨.

[١١] – مصوع: ميناء تجاري مهمّ، يقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وشهد صراعات عديدة في التاريخ، ضمّه العثمانيون لهم، وأقاموا فيه قواعد حربية تأميناً للتجارة ومنافذها في سنة١٥٢٠م، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص (١٢٦، ٢٠٩).

[١٢] – أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط ٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م، ص ١٣٤

[١٣] – عوض محمد خليفات: مملكة ربيعة العربية، ص ٥١.

الداخلية، وقد وصلت العرب إلى أقطار وادي النيل عن الطريق الشمالي البري المارّ عبر سيناء إلى مصر، ثم انحدرت جنوباً إلى بلاد البجة والنوبة[١٤].

هذا، وقد كانت التجارة تمثّل أحد أهم وسيلة لهذه الاتصالات؛ إذ نشطت حركة تجارة العاج، والصمغ، واللبان، والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانئ مصر والسودان والحبشة من ناحية ثانية، مما يؤكد أهميتها في حركة الاتصال، والتواصل النشط بين سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية[١٥]. بلغت هذه الهجرات أقصاها فيما بين ١٥٠٠ ق.م – ٣٠٠ ق.م، في عهد دولتي: (معين، وسبأ) وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر، ووصلوا في توغلهم غرباً إلى وادي النيل، ونشطت حركة التجار العرب، خصوصاً زمن البطالمة والرومان، ولا شك أنّ عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا في أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم، وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين مضيق باب المندب، فاستقر بعضهم في الحبشة، وتحرك بعضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر عطبرة، ليصلوا عن هذه الطريق إلى بلاد النوبة، كما يرجّح أنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل قد انداحوا في هجرتهم حتى المناطق الغربية لسودان وادي النيل[١٦].على أنه من المهم الإشارة إلى نزوح بعض الجماعات النوبية والسودانية عن مواطنها إلى الجزيرة العربية، حيث تأثرت بعادات سكانها قبل الإسلام وتقاليدهم، بل مشاركتها في الحياة الاجتماعية والثقافية هناك،[١٧] فقد أشار ابن هشام إلى استعانة المكّيين بنجّار قبطي في أثناء إعادتهم بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية·[على أنّ أهم نقطة تحوّل في تاريخ العلاقة بين العرب المسلمين وبين منطقة وادي النيل وبلاد النوبة والسودان، حدثت بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١هـ، في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بقيادة الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وكانت هي توقيع المسلمين (معاهدة البقط) مع ملوك النوبة والسودان من النصارى، الذين كانوا يقيمون في شمالي السودان وحاضرتهم مدينة (دنقلة)، ذلك أنّ هذه المعاهدة تضمّنت بنوداً مهمة، سهّلت وسمحت في مجملها للقبائل العربية بالهجرة، والتدفق نحو بلاد النوبة والسودان بشكل كبير لم يحدث له مثيل، مما مكّنها مستقبلاً من الإحاطة بالكيانات النوبية المسيطرة، وتحوّل النوبيين وأهل السودان من النصرانية إلى الإسلام.] [١٨]يعلل المؤرخ الفلسطيني عارف العارف في خطبة له ألقاها عام ١٩٧١م بأن جذور الجالية الإفريقية في القدس تعود إلى قبيلة السلامات من الجزيرة العربية فهاجروا إلى تشاد والسودان ودول إفريقية أخرى، ومع ذلك فقد حافظ أعضاء هذه القبيلة على على اتصالهم مع الحجاز،

---

[١٤] – المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة المطبعة الأميرية ١٩٧٠م، ج ١، ص ١٩٥،

[١٥]– ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٥، تحقيق مصطفى عبد الستار (وآخرين)، مطبعة الحلبي، مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

[١٦] – على بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، ليدن ١٩٧٦م.

[١٧] – الشبكة العنكبوتية.

[١٨] – د/ صالح محروس محمد...أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة بنى سويف، الوجود العربي في شرق إفريقيا، وكالة أنباء الأهرام الدولية ٤/آب ٢٠١٥

وخصوصا مكة والمدينة، لأغراض الحج، وبعد الحج كانوا يأتون إلى القدس لتقديس الحجة، ولهذا فإن بعض الزوار أحبوا القدس واستقروا فيها" [١٩]

الأفارقة كحراس للأماكن المقدسة

يحمل الكتاب والرحالة الأوروبيون وجهة نظر أخرى ويقولون بأن العبيد من أصول أوروبية قد حرسوا المسجد الأقصى المبارك، وحسب رأيهم فإن المماليك والعثمانيين قد قاموا بتجنيد العبيد الأفارقة لحراسة الأماكن الإسلامية المقدسة، وبأن نفس النظام قد اتبع في مكة والمدينة حيث تم استخدام العبيد الأفارقة كحراس، ومع أن هؤلاء عبيد فقد تم احترامهم والثقة بهم، وكانوا في بعض الأحيان الأقوياء.

والمعلومات التالية حول تاريخ الفلسطينيين الأفارقة في القدس أخذت من دراسة قاموا هم بإعدادها بعنوان الفلسطينيون الأفارقة في القدس بين الواقع المزري وآمال المستقبل"

يفتخر الأفارقة الذين يعيشون في القدس بدورهم التاريخي كحراس للأماكن المقدسة، وهو الدور الذي قاموا به منذ عصور المماليك في القرن الثالث عشر، وهم يسكنون الآن في بنايات بناها المماليك على جانبي شارع علاء الدين، والذي يقود إلى المسجد الأقصى ففي أحد الجوانب توجد رباط علاء الدين البوصيري، والذي بني عام ١٢٠٧م، وسمي على اسم بانيه الأمير المملوكي، وفي الجانب الآخر هناك رباط المنصوري، والذي تم تشييده عام ١٢٨٢م، وفي الأصل كان هذان الرباطان يستخدمان كمأوى للحجاج الذين يزورون المسجد الأقصى. وخلال العهد العثماني كان هذان الرباطان يستخدمان كسكن للأفارقة، الذين كانوا يعملون في حراسة المسجد الأقصى وممتلكات الأوقاف الإسلامية، وبسبب أمانتهم ونزاهتهم فقد أوكل إليهم الاحتفاظ بمفاتيح أبواب المسجد الأقصى، وكان من مهامهم منع دخول غير المسلمين من دخول منطقة الحرم القدسي، ولشدة حرصهم فقد فإنه حسبما يذكر المؤرخ الفلسطيني عارف العارف في كتابه " موجز تاريخ القدس " " أن متصرف القدس غيبهم عن الحراسة كي تسنى للدون بارابنت البلجيكي وعقيلته النمساوية الأصل من زيارة الحرم القدسي بإذن السلطان "[٢٠]. وفي نهاية فترة الحكم العثماني تم تحويل الرباطين إلى سجن فأصبح رباط علاء الدين يعرف بسجن الدم، وأصبح رباط المنصوري يعرف بحبس الرباط. واستمر هذا الوضع إلى عام ١٩١٤م وفي عام ١٩١٨م تم إغلاق السجن، وأعيدت المسؤولية عن البناءين للأوقاف الإسلامية التي استخدمت البنائين كمكان لإيواء مؤقت للفقراء بما فيهم الأفارقة، وعندما أصبح الحاج أمين الحسيني مسؤولا عن أوقاف القدس قام بتأجير البنائين للأفارقة السود بأجر زهيد، وقد استمر بعض الأفارقة في عملهم التقليدي كحراس للمِسجد الأقصى المبارك، وما زال أبناء الأفارقة يعيشون في البنائين إلى يومنا هذا. وفي عام ١٩٧١م استرجع الأفارقة حقهم في رعاية بناء لرباط الأمير علاء الدين البوصيري، وقد تم نقل هذا الأمر لهم في حفل رعاه الرئيس السابق والمؤرخ عارف العارف، وفي كلمته قال: لقد نذر الأفارقة أنفسهم كحراس للمسجد الأقصى المبارك، وصمدوا في القدس ولم يغادروها حتى في الأوقات الصعبة ".

القبائل الإفريقية ذات الأصول العربية

---

[١٩] -د، سوزان بيكرلنغ، التاريخ الخفي، الواقع السري، جذور وواقع الفلسطينيون الأفارقة. نقله إلى العربية د: صلاح الزرو،١٩٩٨م ص٤

[٢٠] - عارف العارف، تاريخ قبة الصخرة المشرفة، القدس، ص ٢٢٥

١-السلامات وهي قبيلة عربية ممتدة من آسيا إلى قلب إفريقيا

٢ – الهوسا: ويتواجدون بأعداد كبيرة في غرب إفريقيا.

٣- الفلاتا: هي قبيلة سودانية هاجرت إلى السودان فاستقرت فيها.

٤- البلالة : ويعود تسميتهم نسبة إلى جدهم الأعلى المسمى بلال

٥- كاتيمو: وهي التي تسكن في كانم الحالية واقليم البحيرة.

٦- الفور: ويمارس أهل هذه القبيلة الزراعة وينتشرون في ولاية دارفور.

٧- البرقو: وهم يمارسون الزراعة أيضا.

٨- الزغاوة: من عرب الجنوب وهم من العرب العاربة وهم حميريون.

الأفارقة المقدسيون ودورهم في المقاومة الفلسطينية:

نتيجة للتلاحم المصيري مع الشعب الفلسطيني الرازح تحت ربقة الاحتلال، دفع الأفارقة المقدسيون أثمانا باهظة طالت، حياة البعض منهم كضريبة للاحتلال، فقد استشهد قسم منهم إبان الجهاد ضد القوات الإنكليزية، التي استعمرت فلسطين في الفترة ما بين ١٩١٧ – ١٩٤٨، وخلال حروب ١٩٤٨ – ١٩٦٧ التي دارت رحاها بين القوات الإسرائيلية المحتلة وبين القوات العربية والإسلامية، مثل **الحاج عثمان التكروري**، الذي سقط مضرجاً بدمائه أمام أحد أبواب المسجد الأقصى برصاص القوات الإنكليزية، خلال منعه لتلك القوات من إلقاء القبض على المجاهد الشيخ أمين الحسيني.، والشهيدان الأخوان موسى ومصطفى عبد العزيز برسي، اللذين سقطا في صحراء سيناء إبان حرب ١٩٤٨م ناهيك عن بعض الشهداء الأفارقة، الذين سقطوا على أرض بيت ضفافا خلال تصديهم للعدوان الإسرائيلي عام ١٩٦٧م.

ومع مساهمة الاحتلال الإسرائيلي في تقطيع أوصال الجالية الإفريقية من خلال ما عرف بالنكبات التي حلت بالشعب الفلسطيني- تشتت قسم لا يستهان به من أفراد الجالية، لينتهي بهم المطاف في مخيمات اللجوء الفلسطيني المنتشرة في الدول العربية المجاورة، وبعد أن فروا من بطش الاحتلال وجبروته، بخاصة بعد أن سمعوا عما ارتكبه الاحتلال الإسرائيلي من مجازر ضد أبناء الشعب الفلسطيني مثل قبيا ودير ياسين وكفر قاسم وغيرها، وانعكس ذلك على حجم الجالية الإفريقية المتواجد في المدينة المقدسة الذي انخفض لأكثر من الربع.

وفي عام ١٩٨٢م أصيب الشيخ الحاج بكر عيسى السنغالي، الذي كان يبلغ من العمر ٩٠ عاما بعدة رصاصات في الصدر والبطن بعد أن اقتحم المستوطن الإسرائيلي (ألان غودمان)، فوصفته الحكومة الإسرائيلية بالمجنون تماما، مثلما فعلت مع الإسرائيلي الآخر الذي تجرأ على إحراق المسجد الأقصى المبارك عام ١٩٦٩م، وأطلق النار صوب الشيخ الإفريقي، بينما كان في صلاته خاشعا بين يدي الله، عانى الشيخ على إثرها الويلات بسبب الجراح التي اخترقت جسده إلى حين وفاته بعدها بعدة شهور.

وفي العام نفسة شنت القوات الإسرائيلية هجوما واسع النطاق ضد الأراضي اللبنانية؛ مما أدى إلى استشهاد عدد من أبناء الجالية، الذين يعيشون في الشتات، وهم أديب النسناس وجهاد أبو سعود الذي اجتاز الحدود إلى الأردن سيرا على الأقدام، إضافة إلى السيد إبراهيم طياره، فيما أصيب الشاب علي

محمد البرناوي بجراح خطيرة في ساقيه؛ مما أدى إلى بتر إحداهما، كما أن الأفارقة لم يسلموا من قرارات الإبعاد الجائر والتي نفذتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي بحق أبناء الشعب الفلسطيني، حيث يخضع كلا من عبد الله آدم جده وحسين صالح والأخوين ربحي وجبريل إبراهيم جبريل لهذه الأوامر التي صدرت بحقهم منذ سنوات الاحتلال الأولى، ومنهم من توفي في الغربة، دونما أن يلتئم شمله مع أهله، كما تشير إلى أن الإسرائيليين لم يترددوا في تطبيق سياسة الإبعاد إلى داخل الأراضي التي يحتلونها، مثلما حدث في زمن الانتفاضة مع ابن الجالية الطالب ياسر قوس، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ١٤ عاما، والذي أبعد من القدس إلى الضفة الغربية لمدة عام كامل، بعيدا عن عائلته ومدرسته.

الأفارقة والانتفاضة:

إبان الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت عام ١٩٨٧م لم يكد يخلو يوما إلا واستنشق خلاله الأفارقة الغاز المسيل للدموع أو دوهمت منازلهم بحجج البحث عن شبان الانتفاضة؛ الأمر الذي كان يترك آثارا سلبية على السكان، وبخاصة الأمراض الصدرية والالتهابات جراء الغازات المسيلة التي كان يلقيها الجنود داخل الحي الإفريقي، علما بأن التعليمات لكيفية استخدام القنابل الغازية تلك – بحسب ما أورده المنتج الأمريكي – تحظر استخدام هذه الغازات في الأماكن المغلقة، وخلال إحدى المداهمات لموقع سكن الأفارقة، اعتقل الجنود الإسرائيليون جميع الشبان؛ ممن تراوحت أعمارهم بين ١٠ – ٤٥ عاما، خضعوا خلالها لعملية تحقيق قاسية، شابها كل صنوف الضرب والتعذيب والإذلال، أسمعهم خلالها المحققون إهانات عنصرية تذكرهم بلونهم، وتبلغ نسبة من اعتقلوا من أبناء الأفارقة، من كلا الجنسين (٨٠%) من إجمالي عدد أبناء الجالية الإفريقية، قضوا أحكاما تتراوح ما بين الشهر إلى (18) عاما خلف القضبان الإسرائيلية. ويزيد مجموع ما أمضاه أبناء الجالية الإفريقية في السجون الإسرائيلية عن (٦٠) عاما، هذا مع الإشارة إلى أن هذه النسبة عالية جداً قياساً مع التعداد الإجمالي للأفارقة المقيمين في المدينة المقدسة، بعد كل موجات التهجير والإبعاد التي مارستها السلطات الاحتلالية، ولم تقف الأمور عند هذا الحد، فقد تعرضت بيوتهم للهدم من قبل الجرافات الإسرائيلية، كما حدث مع عائلة التكروري التي تعد (١٤) نفراً،وعائلة السيدة مريم مؤمن التي تعيل (٥) أطفال أيتام، وعبد الرحيم **مؤمن** الذي يعيل (٧) أنفار، وذلك بحجة مشاركة أبناء هذه العائلات بالفعاليات الانتفاضية في مدينة أريحا، لكن الإسرائيليين أدركوا لاحقا أنهم هدموا منزل السيدة مؤمن نتيجة خطأ معلوماتي!! بعد أن تركوها مع أطفالها تفترش الأرض، وتلتحف السماء دون مساعدة أو حتى تعويضها عن ذلك الخطأ الذي تركها بدون مأوى[٢١]. وخلال انتفاضة الأقصى، قدمت الجالية أحد أبنائها وهو **الشاب أسامة محمد جدة** شهيدا على مذبح الحرية، وذلك في اليوم الأول من الانتفاضة، حيث سقط الشاب البالغ من العمر ٢٣ عاما على أرض جبل الزيتون قرب مستشفى المقاصد الخيرية في القدس بتاريخ ٢٠٠٠/٩/٢٩، أثناء توجهه إلى ذلك المشفى للتبرع بالدم لإخوانه الجرحى من أبناء الشعب الفلسطيني... وخلال الأحداث الأخيرة التي شهدتها مدينة القدس في الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٩ خلال محاولة

---

٢١ أبناء الجالية الإفريقية، الفلسطينيون الأفارقة في القدس الشريف ، بين الواقع المرير وآمال المستقبل، (نشرة خاصة) ١٩٩٦م ص ٨

المستوطنين اقتحام باحات الحرم القدسي الشريف لغرض وضع ما يسمونه حجر الأساس لهيكلهم المزعوم، اقتحم جنود الاحتلال مساكن الجالية الإفريقية وداهموها، وعاثوا فيها فسادا، وأطلق صوبها العديد من قنابل الغاز المسيل للدموع، كما اعتدى بالضرب على الشباب الذين هبوا للدفاع عن أقصاهم، وجرى اعتقال اثنين من أبناء الجالية هما علي محمد قانمبو ومجدي حسني أبو بكر، كما قام جنود الاحتلال من حرس الحدود والوحدات الخاصة بتدمير أثاث بعض المنازل. وبتهمة الاعتداء على مستوطن تم اعتقال الأخوين محمد (١٧) وأحمد بلاله (١٦) عام، وكذلك اعتقال الشاب جهاد قوس (١٦) بتهمة المشاركة بالدفاع عن المسجد الأقصى، غير أن كل ذلك، وبعد منع المقدسيين، ممن تقل أعمارهم عن ٥٠ عاما من دخول المسجد الأقصى، لم يمنع نساء الجالية الإفريقية من القيام بواجبهم الوطني والديني بتزويد الطعام والأغطية للمعتكفين داخل الأقصى للدفاع عنه من دنس الاحتلال والمستوطنين المأفونين، بعد أن منع الجنود المنتشرون على أبواب الحرم القدسي الشريف من إدخال الطعام إلى باحات الحرم، وذلك في إطار حصارهم للمعتكفين، ومحاولة الضغط عليهم لإنهاء اعتكافهم وفي خضم التحضيرات للحفل النهائي للاحتفالية الوطنية بالقدس عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٩، وبعد مواجهات خاضها المحتشدون في باب العامود– تم اعتقال الشاب حماده برقاوي ١٧ عاما بتهمة المشاركة بالفعالية الوطنية.

الأوضاع الحياتية للأفارقة المقدسيين:

الأوضاع الاقتصادية:

لا تختلف الأوضاع الاقتصادية التي يحياها الأفارقة المقدسيون، عن الحالة المتدهورة لبقية أبناء الشعب الفلسطيني، نتاج سياسات الخنق الإسرائيلية، وتقر مراكز البحث التابعة للاحتلال أن نسبة الفقر بين العائلات المقدسية تزيد عن ٦٦.٨% وعن ٧٤% وسط الأطفال المقدسيين، وهذه النسبة المرتفعة للمقدسيين الذين يعيشون على أقل من دولار في اليوم، هي التي دفعت العديد من أبناء الجالية الإفريقية المقدسية من الشبان والشابات على التضحية بمواصلة مسيرتهم العلمية للالتحاق بسوق العمل لمقاسمة أهاليهم أعباء الأوضاع الاقتصادية الصعبة، التي يعانونها، وهذا ما انعكس سلبا على تردي المستوى العلمي لدى أبناء الجالية،وتركهم التعليم الثانوي لاضطرارهم للخروج لمعترك العمل لمساعدة عوائلهم لتأمين قوتهم اليومي وليتمكنوا من العيش حياة مستورة والتوجه إلى المصانع والورش الإسرائيلية لهذا السبب.

يضاف إلى ذلك، أن الأزواج الشباب من أبناء الجالية يضطرون إلى مقاسمة عوائلهم الحُجر الصغيرة التي تسكنها، والتي لا تزيد مساحة أغلبها عن٢,٥ × ٣ مترا، الأمر الذي يخلق اكتظاظا.

مما يسبب مشاكل اجتماعية كثيرة. أما من أسعفه الحظ بوضع مالي جيد نسبياً، يتيح له استئجار مسكن خارج الرباطين بما لا يقل عن ٨٠٠ دولارا أمريكيا، ومن لم يسعفه الحظ يضطر للعودة للسكن بين أهله في هذا الوضع الصعب.

الوضع الاجتماعي:

لقد اندمج الأفارقة المقدسيون مع المجتمع الفلسطيني من اللحظات الأولى لاستقرارهم في المدينة المقدسة، حيث شكلت عوامل اللغة والدين والعادات المشتركة– أساسا لعملية الاندماج والانصهار المجتمعي، فالغالبية من الأفارقة المقدسيين تزوجون من نساء فلسطينيات، والعكس صحيح، وجزء منهم متزوجون من أبناء الضفة الغربية؛ مما زاد من معاناتهم في إجراءات لم الشمل مع أسرهم، وفقاً لقانون سلطات الاحتلال الإسرائيلي التي تقوم ومنذ العالم ٢٠٠٣ بوضع قيود على لم شمل الأزواج من أبناء الضفة الغربية، وتفرض قيودا على منحهم حق الإقامة في مدينة القدس. ويلاحظ أيضا، أن هنالك ارتفاعاً في نسبة الأطفال من جيل ٥–١٨ عام والتي تتجاوز نسبة ٧٥% من إجمالي عدد أبناء الأفارقة المقدسيين، مع افتقار المدينة المقدسة لدور حضانة في البلدة القديمة، لمن هم دون سن الـ (٥) أو روضة أطفال أو مساحات عامة تساعدهم على التعبير عن طفولتهم والحال ليس بأفضل، مع فئة المراهقين والشباب، الذين في معظمهم ينخرطون ضمن القوى العاملة الفلسطينية، بدلا عن البقاء في مكانهم الطبيعي على مقاعد الدراسة هذا، ناهيكم عن أن السواد الأعظم من أبناء الجالية الإفريقية المقدسية لا يحملون أية جوازات سفر، تتيح لهم التنقل بين بلدان هذا العالم، فالحكومة الأردنية لا تعترف بهم كمواطنين أردنيين، كباقي سكان القدس، فيما هم محرومون من جوازات السفر الفلسطينية، كغيرهم من أبناء مدينة القدس بحسب ما جاء في اتفاقات أوسلو الموقعة بين السلطة الفلسطينية والإسرائيلية، التي أرجأت بحث وضع المدينة المقدسة إلى المرحلة النهائية، مما يترك الأفارقة أمام خيار وحيد، وهو حمل وثائق السفر الإسرائيلية، علماً أن الغالبية العظمى من أبناء الأفارقة مثلهم مثل أكثرية أبناء القدس الشريف المخلصين، يعارضون حمل جنسية الاحتلال، ويساهم هذا الوضع في الإيغال في قطع أوصالهم عن محيطهم العربي، حيث يعيش قسم من إخوانهم ممن هجروا إبان لحروب الإسرائيلية في فلسطين، ويقطع شملهم بأقربائهم ويحرمهم من الالتقاء بهم.

عادات الزواج للأفارقة:

"خلصت الباحثة الدكتورة سوزان بيكرلنغ وبعد المقابلات التي أجرتها مع عدد من أعضاء هذه الجالية– بأن الزواج كان في الماضي محظورا بين السود والبيض، ولا يوجد دلائل على أن البدو قد اتخذوا من النساء السود محظيات لهم، وإنما المعروف أن السود كانوا يتزوجون من سود مثلهم، ممن ينتمون إلى عائلات أخرى، ومعظم السود من الأصول الإفريقية لهم بعض النسب الأبيض،ويشير تاريخ العائلات إلى شيوع الزواج المختلط بين هؤلاء الناس من ذوي الأصول الإفريقية وغيرهم من الفلسطينيين. وبعد عام ١٩٤٨م كان هناك تغييرات فقد بدأ الرجال السود بالزواج من نساء بيض من القرويين الذين تعود أصولهم للضفة الغربية أو غزة أو الجليل لكنهم لم يستطيعوا ابدا الزواج من نساء بدويات، وقليلة هي الحالات التي تزوج فيها رجل بدوي أبيض من إمرأة بدوية سمراء ؛ لهذا فإن أغلب الناس الذين يعتبرون سودا له أصول مختلطة، والمهم في حساب الأنساب هو سلالة الرجل"[٢٢]

[22] - التاريخ الخفي، بيكرلنغ، سبق ذكره ص ٤

واقع وهوية الفلسطينيون الأفارقة:

الأفارقة السود يعيشون في المجتمعات العربية والإسلامية، وقد أخذوا موقعهم الطبيعي كأبناء أمة عربية مسلمة، ولا فرق بينهم وبين غيرهم حيث أنهم تزاوجوا من البيض وتزاوج البيض منهم وألغي استخدامهم نهائيا، وأصبحوا أحرارا وها هم اليوم في جميع الأقطار لا فرق بينهم وبين غيرهم، وحررهم الإسلام، فحرص على مساواتهم بالآخر، وهذا من فضائل هذا الدين العظيم، حيث كان ينظر إليهم في الجاهلية كعبيد، فأصبحوا ينافسون غيرهم في كل نواحي الحياة وتسنموا أعلى المناصب في الدول العربية والإسلامية، حتى إنهم كانوا يعيشون في مجتمعاتنا سابقا تحت طائلة الوظائف البسيطة، وقد اندثرت هذه الحالة نهائيا لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

حيث إن الفلسطينيين من أصل إفريقي قد توزعوا على مناطق مختلفة من فلسطين، وتأثروا كأفراد وعائلات بتغيرات سياسية أثرت على المنطقة، فقد كان هناك فرصة قليلة لتطوير هوية ذاتية بين هؤلاء الناس باعتبارهم أفارقة، بعضهم أصبح مواطنا يعيش تحت الاحتلال الإسرائيلية أو يعيش في الأردن، وسجل القسم الآخر كلاجئين فلسطينيين، وبعضهم يحملون بطاقة لاجئ صادرة عن الأنروا، وبعضهم تشتت في لبنان وتونس، ووصلوا مراتب عسكرية عالية في منظمة التحرير الفلسطينية، وكثير من العائلات تشتت ولا تستطيع أن تلتقي بانتظام بسبب إغلاق الحدود المستمر. أما بخصوص مسألة المواطنة والحقوق، فقد أشار الكثير من السود المرتبطين بالبدو إلى الأحاسيس القوية والشعور بالجذور المشتركة مع الأشخاص السود الآخرين، الذين قابلوهم أو شاهدوهم في البرامج التلفزيونية، والفلسطينيون الأفارقة الذين يعيشون في القدس لا يصفهم أي شخص بما لا يليق بهم، لأن مكانتهم في المجتمع الفلسطيني معروفة، ودورهم في النضال ضد الاحتلال محترم من قبل مواطني القدس، وقد عرفوا أنفسهم بأنهم أفارقة وفلسطينيون، ومع ذلك فإن لهم مشاكل مختلفة فيما يتعلق بهويتهم، خاصة عندما يتوجهون للحصول على وثائق سفر، فعلى عكس مواطني الضفة الغربية الآخرين– فإن الأردن لا تعترف بهم كمواطنين أردنيين، وهم لا يستطيعون الحصول على جواز سفر فلسطيني، لأنهم يعيشون في القدس التي استثنيت من اتفاق أوسلو؛ لذا فإن أغلبهم لا يوجد له جواز سفر، وإنما يمكنه الحصول على وثيقة إسرائيلية، وهذا ما يرفضونه.[٢٣]

الخلاصة :

ومع نهاية هذا البحث المهم ولخاص بالجالية الإفريقية في بيت المقدس، وأدود أن أشير على أن بيت المقدس هذه المدينة العريقة لتعتبر بحق مهوى أفئدة المؤمنين، وكل إنسان يرغب الوصول إليها إما زائرا أو سائحا أو مقيما فيها، لما لها من أهمية في قلوب أبناء البشرية، فما حازت مدينة في الكون على فسيفساء بشرية كمثل هذه المدينة–وما سكن هذه المدينة إلا عشاقها وأهل الإيمان الذين ينظرون إليها نظرة قداسة ومحبة وروحانية، فما تزال هذه الجالية على رأس الجاليات ذات الجذور العميقة والعريقة في هذه المدينة وقد وفد الأفارقة إليها لسببين:

الأول: جهادي ضمن الحملات التي وفدت مع القائد صلاح الدين لتحرير بيت المقدس من الصليبيين

---

[٢٣] - التاريخ الخفي، سبق ذكره ص ١٧

الثاني : بقصد التعبد والمجاورة في أكناف المسجد الأقصى المبارك من المعلوم أن الأفارقة قد وفدوا لهذه المدينة من شمال إفريقيا من الدول العربية والإسلامية كالمغرب العربي والجزائر وتونس وشمال إفريقيا. أما القسم الآخر فهو من المسلمين الذين وفدوا

واستقروا فيها من الدول الإفريقية، مثل تشاد والنيجر والسودان والسنغال وغيرها كانت القدس الحضن الدفيء لهذه الجاليات فطاب لهم العيش فيها، وأصبحوا فلسطينيين، بل

ومقدسيين بيد أنهم ما يزالون يحنون إلى وطنهم الأم، ويتواصلون مع أقاربهم.

سكن المغاربة في حي المغاربة بجوار المسجد الأقصى، وأسسوا لهم الزوايا ودور العلم، ونبغ منهم العلماء والوعاظ والفقهاء وأصبحوا من العائلات المرموقة في هذه المدينة إلى أن سحقها الاحتلال الإسرائيلي بجرافاته، وهجر أهلها خارج القدس، وفي الشتات ولدى زيارتي له تبقى من هذا الحي فلم أجد إلا بيتا واحدا، وهو شبه محاصر من المستوطنين، الذين حولوا هذا الحي إلى كنس يهودية أما الجالية الإفريقية من القارة السوداء فقد عرف عنهم بالتمسك بالأقصى، وشدة الانتماء لهذه المدينة– فكان منهم الحراس المخلصون في عملهم، واعتبروا أنفسهم من سدنة هذا المسجد، وهم يسكنون الآن في بنايات بناها المماليك على جانبي شارع علاء الدين، والذي يقود إلى المسجد الأقصى، ففي أحد الجوانب بوجد رباط علاء الدين البوصيري، والذي بني عام ١٢٠٧م، وسمي على اسم بانيه الأمير المملوكي. وفي الجانب الآخر هناك رباط المنصوري، والذي تم تشييده عام ١٢٨٢م. وفي الأصل كان هذان الرباطان يستخدمان كمأوى للحجاج، الذين يزورون المسجد الأقصى .

وخلال العهد العثماني كان هذان الرباطان يستخدمان كسكن للأفارقة، الذين كانوا يعملون في حراسة المسجد الأقصى وممتلكات الأوقاف الإسلامية، وبسبب أمانتهم ونزاهتهم فقد أوكل إليهم .وها هم اليوم ضمن النسيج الوطني الفلسطيني الاحتفاظ بمفاتيح أبواب المسجد الأقصى يشاركون إخوانهم الفلسطينيين في جميع سبل الحياة، فيتزاوجون منهم، ويتعايشون معهم، ويقدمون التضحيات الجسام في سبيل القدس، والحفاظ على عروبتها وإسلاميتها.

التوصيات

حيث أنني قد قمت بزيارات ميدانية في القدس الشريف خلال المدة السابقة، وقمت بمقابلة أفراد من كلا الفريقين الجالية المغربية الإفريقية، والجالية الإفريقية من سكان حي علاء الدين– تبين لي:

١– حيث أن القدس أصبحت الآن في قبضة اليهود، وتم سحق الجذور السياسية والمدنية لغير اليهود، ولم يعد هناك مجال للتوسع، فضاقت على أهلها الأرض بم رحبت، فمن الواجب دعم هذه الشريحة للحفاظ على تواجدهم داخل أسوار هذه المدينة.

٢– منح هذه الجالية جوازات سفر أردنية وهويات فلسطينية، ليتمكنوا من السفر وحرية الحركة

٣– تأمين دخل اقتصادي لهذه الجالية للحفاظ على تواجدهم.

٤– العمل على تأمين مساكن لهذه الجالية من أجل الحفاظ على تواجدهم.

٥– الحصول على جوازات سفر من وطنهم الأم ليبقى التواصل بينهم وبين أقاربهم من البلاد التي وفدوا منها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع:

- محمد رشيدعناب، الاستيطان الصهيوني في القدس، ط١ القدس، بيت المقدس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١
- مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢، عمان، مكتبة المحتسب للنشر والتوزيع، ١٩٧٢م
- د، سامي محمد الصلاحات، الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات،ط١، ٢٠١١م
- د أحمد العلمي، وقفيات المغاربة، دائرة الأوقاف العامة، القدس، ١٩٨١م
- أحمد سعد الدين العلمي،وقفيات المغاربة، القدس،دائرة الأوقاف العامة، ١٩٨١م،
- الدكتور خضر عباس، مدونة منشورة على صفحته الشخصية.
- ابن سيد الناس: السيرة النبوية، ج ١، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٥٢، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦م،
- محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة، ١٩٥١م.
- مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة.
- أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط ٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣
- عوض محمد خليفات: مملكة ربيعة العربية.
- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة المطبعة الأميرية ١٩٧٠م، ج ١
- ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٥، تحقيق مصطفى عبد الستار (وآخرين)، مطبعة الحلبي، مصر ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
- على بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، ليدن ١٩٧٦م.
- د. صالح محروس محمد...أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة بنى سويف، الوجود العربي في شرق إفريقيا، وكالة أنباء الأهرام الدولية ٤/آب ٢٠١٥
- د، سوزان بيكرلنغ، التاريخ الخفي، الواقع السري، جذور وواقع الفلسطينيون الأفارقة. نقله إلى العربية د: صلاح الزرو،١٩٩٨م
- عارف العارف، تاريخ قبة الصخرة المشرفة، القدس